مارأيت وما سمعت

في سوريا ولبنان

للاستاذ حبيب الزحلاوى

— ٢ —

لا خوف من الكلام الذى يقال جهراً ، إنما الخوف من الأقوال التى تهمس همساً ، ومن الإيماءات والاشارات والغمزات التى يتبادلها الناس فى سورية ، ومن أحاديث المجالس الخاصة ، ومن صمت العامل والزارع والتاجر ، ومن همهمة الطلبة وذوى الشبيبة المتعلمة

لقد رأيت كثيراً ، وسمعت كثيراً جداً ، وفتحت لى أبواب وصدور ، ووقفت على أمور عزيز على سواى الوقوف عليها ، لا لأنى من البقية الباقية ممن عملوا فى كل ميدان من ميادين الجهاد ، ولا لأنى تباعدت عن موائد الغنيمة ، بل لأنى اغتسلت من دم الثورة بدمائها ، ولأنى ، بعد أن ضمدت جراحى ، نذرت الانطواء على نفسى كما انطوى الكثيرون امثالى على أنفسهم عزة وكبرياء ، أقول

من الأمور التى سمعتها فى سورية ما يخلق بى أن أتناولها بالكلام الصريح البعيد عن اللبس ، ومنها ما يحسن أن ألمسه لمساً رقيقاً بغية أن « يفهم » من يهمهم أمر البلاد إن الشعب ينزع من حاكميه وزعمائه منزع التأفف والضجر ، ومنزعاً آخر لا أدرى كيف اسميه ومعناه « دعهم فى جهالاتهم يعمهون وعلى الغنائم يتكالبون ، وعلى مقاعد الحكم يقتتلون »

* * *

الأوضاع السياسية فى سورية لم تستقر بعد ، وقد لا تستقر إلا إذا أزيلت موانع لا تحيد البتة من زوالها ، وذلك عقبات لا مناص ، من تذليلها مثال ذلك.

١) يوجد حتى اليوم طائفة من الرجال الذين عملوا فى جميع أو فى بعض ميادين الجهاد للاستقلال ، منهم من جاهد بعقله ومعارفه ، ومنهم من قاتل ومنهم من أدار القتال ، ومنهم أيضا من كان ذيلاً لهؤلاء وهؤلاء ، وأكبرهم ، بل أكاد أقول جميعهم قد بلغ من العمر أرذله ، إلا من خصهم الله بمواهب عالية لا يحوزها إلا أفذاذ الرجال ، هل من منطق السياسة وسنة التطور أن يستأثر جميع هؤلاء بمقاعد الرئاسة ودسوت المجالس ، لا لشىء إلا أنهم من المجاهدين ؟

٢) فى البلاد طائفة أخرى انتهازية ماشت جميع الحكومات التى تقلبت على البلاد من ترك وعرب وفرنسويين وسوريين ، وتلونت كالحرباء بكل لون ، وما برحت تدخر مؤونتها من الاصباغ للتلون ، فتكون مثلا جمهورية مع الجمهوريين ، وهاشمية مع الهاشميين ، وديكتاتورية مع الديكتاتوريين ، وشيوعية مع الشيوعيين. ولا عجب إذا رأيتها تتدثر مرقعية تجمع أعلام هؤلاء جميعا ، هذه الفئة الضعيفة التى لو أعوز الشيطان وجهاً رقيعاً جديداً لم يخطر بباله أو وضعه وشكله بياله ، لابتدعوه له ابتداعاً واختلقوه بطرفة عين !! هذه الطائفة الخبيثة ما زال أفرادها تعج بهم دوائر الحكومة ، وتحفل بهم مجالس النيابة والبلديات والمحافظات .

عرفت « تيمورلنكا » منهم أعرج يتخطر فى الجمعية التأسيسية ، رأيته ينساب ويتلوى بين « الحورانى والحلبى » فنفرت ، لا من عرجه وعواره ، بل من شره القديم ، وأصالته فى الخدمة الأمينة لأسياده الأتراك ومن بعدهم الفرنسويين ، وقيل لى ، انه اليوم العبد اللين المطواع لأسياده الإنجليز والأميركان ، وهو ينادى بأنه هاشمى نورى ، ويقول إنه الخادم الأمين للشعب فى المجلس التأسيسى الذى سيحوله إلى مجلس نيابى .

هذا نمط عجيب « ونمرة » نموذجية لعشرة أمثاله رأيتهم يتيهون فى المجلس التأسيسى ويختالون عجبا.

٣) لم أسمع كلمة رددها كل لسان فى سورية مئات المرات غير كلمة « الوعى القومى » لقد سمعت هذه الكلمة الحلوة من السيدات والآنسات المثقفات فوقفت منهن على تفسير طريف لمعنى « الوعى القومى ».

سمعت الوزراء ورجال الجمعية التأسيسية يجتهد كل ذات من ذواتهم الكريمة فى تعريف « الوعى القومى » .

سمعت هراء كثيراً من الشعب فيه فيض دفاق ، ووصف حار مبعثه العاطفة الملتهبة بحب « الوعي القومي » .

تذكرت الصديق الكريم الدكتور قسطنطين زريق مدير الجامعة السورية واضع كتاب «الوعي القومي» . فقلت ما أكثر ما يقرأ الناس المؤلفات فتهتز مشاعرهم دون عقولهم ! !

تلفت حولي على أجد أثراً أو ملامحاً أو قسمات أو مظهراً واحداً من مظاهر « الوعي القومي » فلقيت — يا للحزن والخجل مما لقيت — لقيت أهالي شمال سورية يغيرون على أهالي الجنوب ، ورأيت أكثرية الوزراء من أهالي حلب وحماه وحمص ، ورأيت دوائر الحكومة تغص بالحلبيين الشماليين ، ولم أسمع أني جلست مجالس الرجال العاملين ، إلا لهجة حلبية واضراساً صلبة تقضم لحوم الدمشقيين ، سمعت أقوالا في « الشاميين » تكفيني الاشارة إليها كفاية المغموس بجرعة من الماء .

لقد عاب الشعب على حكومة الثورة فعالها فاسقطها بعد أن رجمها بالحجارة لا بحجر واحد ، لقد أسقطها « المجنون » لقلة خبرتها وحرمانها بالحكم ، لقد أسقطها « الضباط » ليسلموا مقاليد البلاد إلى « الارتجاليين » ، لقد ذبح الارتجاليون الحرية في سورية بأسياف الجيش ، وكسروا الأقلام التي تخط حروفاً تؤلف « الوعي القومي » .

٤) لست بآسف على تسميتي « ديكتاتور » سورية بالمجنون لأن حسني الزعيم ، يرحمه الله ، لم يكن ينقصه من صفات الزعامة وخصائص الدكتاتور ، سوى العقل والمعرفة ولا شيء سواهما ، وبرغم هذا النقص البسيط كان وما زال معبود الشعب ، وأن كثيراً من الناس في سورية يبكونه ويذكرون عهده الرخي وأيامه الرغدة .

أي والله ، لقد رأيت في سورية أناساً يبكون الزعيم وهم لا يدرون أنهم يبكون كرامتهم وحريتهم وإنسانيتهم وقيمتهم الاجتماعية ، وعجبت لهذه التناقضات والأوضاع المقلوبة ، إنه لمن المؤسف حقاً أن يجول في الخاطر السوري ما يسيء الظن بالتفكير السوري الموسوم بالسليم .

قاتل الزعيم الرشوة وسوء الإدارة بقلب الأوضاع الثابتة انقلاباً ، أصيب الطاغية برعن الحكم فمات بيد حساده من ضباط الجيش ، انقلب حساده جبابرة وهم أقزام ، طاب لقزم من الضباط أن يقلد زعيم الأتراك مصطفى كمال فأخذ يسكر ويسكر ، يحكي ويحكي ، وطاب له مرة ثانية أن يمتحن مبلغ سلطانه ليؤمن بنفسه وهو سكران ، تناول الضابط العظيم سماعة التلفون وخاطب كبير الوزراء داعياً إياه إلى الاستقالة فاستقال ، صحا السكير فقرأ في صحف الصباح خبر استقالة الوزارة فدهش ، وأراد عند ما استفاق ، استدراك عبثه ولكن بعد فوات الوقت ، ولم تجد وساطة رئيس الجمهورية بين العازل والمعزول ! !

في سورية اليوم ادارتان للحكم ، مستترة وظاهرة . لست أريد الكلام في الادارة المستترة لأن جل رجالها العظام هم من أصحاب السيرة المعروفة في طول البلاد وعرضها ، وهم من العصاميين الأفذاذ الذين أوصلتهم شجاعتهم وبطولتهم في ظلمات الليل ومنعرجات الطرق فاجلستهم مجالس رجال لا ينفكون عن مطالعة الخطط والتواليف وتواريخ عظماء الرجال الفاتحين ، وهم بكلمة واحدة أولئك الذين اشترى الفرنسيون شتمهم ببذل عليها أشرطة ونجوم وتماويذ .

٥) قال لي زعيم من زعماء المجلس التأسيسي انه عزم هو واقرانه على تحويل المجلس التأسيسي إلى مجلس نيابي ، قال لي ذلك بعيد فشل الاجتماع الذي عقده أقطاب أبناء الشمال والجنوب .

أريد بابناء الجنوب ، رجال تلك الأحزاب المعارضة التي اضربت من الاشتراك في الانتخابات للمجلس التأسيسي تفادياً ، في الظاهر ، عن الاعتراف بالأمر الواقع ، ومن تزكية الانقلاب الذي طوح برئيس الجمهورية السيد القوتلي ، وهربا ، في الباطن ، من فشل كان محققا آنذاك . أما أبناء الشمال فهم أكثرية رجال الوزارة القائمة ومن يؤازرها ويساعدها من الأنصار والمحاسيب والطفيليات المرتزقة .

طلب الدمشقيون إعادة السيد القوتلي إلى رئاسة الجمهورية ، وباعادته تزول الأوضاع الشاذة التي نجمت عن الانقلاب العسكري

رفد الحلبيون هذا الطلب ، وارتأوا لتعود الحياة الطبيعية للرجال العاملين وللبلاد أيضاً أن تبقى رئاسة الجمهورية للسيد